الصورة المقنعة

للكاتب الانجليزى جيمس ماجوفن
بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

لشد ما كان يسيطر علىّ العجب وأنا أشهد عراكا عنيفاً ما تنطوى دواعيه ، بين ميندو رئيس الشرطة وبين عصابة اللصوص ، فهو ما يهدأ إلاّ أن يكشف ما يحيكون فى الخفاء ، ثم هم لا يستطيعون أن يظهروا عليه ، وهو عدوهم الذى يلقى الرعب فى قلوبهم ، ويزلزلهم زلزالاً شديداً بما فيه من خفة ومهارة تفوقان ما كان يبديه زعيمهم رافيان . وفى الحق لقد كان ميندو مبعث الخوف والفزع فى قلوب اللصوص جميعاً لأنه كان يحمل لهم بين حنايا ضلوعه ضغينة ثائرة لا تستقر إلا أن يدفع بهم إلى غيابة السجن

وتراءى لى أن ميندو — وهذا شأنه — رجل قد نزعت من قلبه الرحمة والشفقة ، حين رأيته — مرات ومرات — يؤدى واجبه فى صرامة وشدة ؛ غير أن القصة التى أقص الآن تبرهن على خطأ ما زعمت ...

* * *

فى حجرة ضيقة مضيئة فى الطبق الأعلى من منزل فى ميدان (ميلين) جلسا يتسامران فى رقة كأنهما صديقان حميمان برغم تفاوت ما بينهما فى السن والطبقة : أما الأولى فهى مسز ليون التى تسكن هذه الغرفة ، استقرت هنا بعد أن تناوحتها أعاصير الحياة ثم قذفت بها إلى هذا المأوى الحقير تُسقى بكأس مريرة من الفاقة والعوز والوحدة ، بعد أن كانت ترشف من رحيق الحياة رضاباً سائغاً ؛ وأما الثانى فهو والترهُورتن طالب طب أولع بفن التصوير والرسم ، أرسلته جمعية المواساة إلى هذه العجوز المريضة ليرعاها ، وهو نبيل المنشأ والمربى فيه الرجولة والكرم والشرف والغنى جميعاً ، وأحس فى المرأة التى إلى جانبه عاطفة شريفة فياضة تتأجج تحاول جهدها أن تكتمها عن الناس ، غير أن الشاب لمس بعضها فى رنّات صوتها وعذب حديثها وعطفها وحنانها ، فاطمأن إليها واطمأنت اليه

وجلس الطالب الشاب — ذات مرة — إلى صديقته العجوز يحدثها يقول وعلى فمه ابتسامة : « إننى أعتذر إليك — يا سيدتى — فلقد كان يتراءى لى أنك غير من عرفت ، فما كان لى أن أقحم نفسى فى حديث هو بعض قلبك ، غير أن ما أحسست به من حنانك وعطفك بعث فى نفسى أنه كان لك ابن شغلت به زماناً عن كل شىء » وتدفقت الكلمات من بين شفتى الشاب فى غير روية ولا أناة ، غير أنها تساقطت على قلب المرأة كأنها شواظ من نار ، فراحت تحدّق فى الفتى علها تستشف ماوراء ، ثم وضعت يدها على مكان القلب من صدرها كأنها تمسك به أن يفر وهو ينتفض انتفاضاً سريعاً ، وأرسلت زفرة حرّى تتلهب أذهلت الفتى ... ثم ساد السكون ... لقد أثارت كلمات الفتى أحزان قلبها وآلام ماضيها فبدت على وجهها غضوناً غضوناً ، وفى محجريها عبرات تترقرق ؛ ثم انطوت على نفسها كأنما تنشر

أمام عينيها صفحات من تاريخها فيها الألم والسرور فى وقت معاً ... واستطاعت — بعد لأى — أن ترتد إلى الفتى تحدثه وفى صوتها الأسى واللوعة: « آه ، يا بنى ، اطو هذا الحديث ، حقاً لقد كان لى ابن ... ابن جميل طاهر كأنه بعض ملائكة السماء ثم ... ثم نجمت فيه » ثم غلبتها العبرة ... فقال الفتى فى رقة : « لعله قد مات ! » قالت : « نعم ، ودفنته فى قلبي .. لقد فقدته منذ زمان .. لقد خبرونى أنه أصبح لصاً فيه الضراوة والشراهة فاصدقتهم .. أصبح لصاً يستلبنى ويستلب غيرى من متاعه ومن ماله ثم هو يهبط إلى السجن بين الحين والحين ... تلك خواطر تضطرب فى خيالى فتذهب بصوابى وخير لى أن أعتقد أنه مات ... مات فى طهره وجماله كما يبدو فى هـذه الصورة » ثم مدت يدها المضطربة إلى ستر تزيحه فبدت من ورائه صورة هى بعض آيات الفن الجميل ، فقال الطالب : « يا عجباً ! إن هذه الصورة تبعث فى النفس السلوة ! أفتأذنين فأنظر إليها حيناً ، فأنت تعلمين أننى أغرمت بهذا الفن منـذ زمان ؟ » فقالت فى هدوء : « نعم ، فأنا لا أستطيع أن أرد طلبتك جزاء ما حبوتنى من عطف »

وكشف والترهوتن النقاب عن الصورة ثم ارتد إلى وراء وقد تعلق بصره بها يردده هنا وهناك فى جوانب الصورة ... إنها صورة صبى يتألق حياة وجمالاً وتشع سمات السعادة والرضا من وجنتيه وقد انسدل شعره السبط الذهبي على كتفيه وهو فى مرح الطفولة ونشاطها يتوارى خلف شجرة من أشجار الكرز وفى يمناه غصن أثقلته ثمارها الحمراء وفى أسفل الصورة سطر :

« فى نضوج الكرز ! جيمس ليون فى السابعة من عمره »

وسيطر على الحجرة صمت عجيب ، وقد راع الشاب ما رأى من جمال الصورة وفتنتها ، والمرأة تضطرب فى ماضيها ... ثم بدد الطالب هذا الصمت بقوله : « ما أجمل ! إنها فوق الوصف ! أفتعلمين ، ياسيدتى ، أن ثمن هذه الصورة قد يبلغ مائة جنيه أو مائتين أو أكثر ؟ » وابتسمت العجوز لما سمعت ثم قالت : « هذا حديث سمعته مراراً حين كنت أعيش فى الغبطة والسعادة ، إلى جانبي وحيدى جيمس ، أما الآن فلا سبيل إلى ذلك لأننى لا أستطيع عنها صبراً ؛ فهى رفيقتى بعد ولدى ، وهى وحى الهوى والحب لأنهـا آخر ما رسم زوجى الفنان ، فهى عندى ترجح مال الدنيا » وتهدم أمل الطالب حجراً حجراً ثم ارتد يحدق فى الصورة ويقول : « ما أريد أن أشتريها إلا أن تأذنى ، ولكننى أريد أن أرسم أخرى مثلها » قالت « وهذا أيضاً لا أرضاه فما أطيق أن تتناهبهـا الأبصار » قال الشاب : « إن عيناً لن تراها ، وسأحرسها بعناية هى فوق عنايتك . ولا ضير ، فأنا أدفع ثمن إذنك غالياً » وكانت الكلمات تضطرب على شفتى الشاب لأنه كان يستشف الرفض من نظرات العجوز . قالت : « أنا لا أستطيع النأى عن هذه الصورة لحظة من عمرى » قال : « ولكن المال ... ! » قالت : « إنك تحاول عبثاً » وانطوى الفتى على نفسه فى صمت يعض الأنامل من الغيظ وقد شاعت حمرة الخجل فى وجهه من أثر الخيبة ، ثم قال : « لا بأس ، فأنا أنقل عنها هنا ! » قالت : « ولا هذا أيضاً ، وإنه ليحزننى أن أحول بينك وبينها أبد الدهر » ثم

أسدلت على الصورة ستارها وهي تقول : « والآن أطلب إليك أن تمحو ذكرى هذه الصورة من خيالك ، وأن أرى فى صمتك عنها البرهان على أنك رجل ... »

ووجد والتر هوتن فى المرأة إصراراً وعناداً فانطلق من لدنها وهو يحدث نفسه قائلاً : « لا ضير فسأنال بغيتى .. سأنال بغيتى .. وإن أعجزتنى الأيام فسأجد من يسرقها ! »

وابتدأ هو — فى اليوم التالى — يتحدث حديث الصورة فراعه أن يجد فى مسز ليون الفتور والجفاف والصمت ، فهى لا ترد جواباً بسوى ابتسامة فيها السخرية ، أو نظرة فيها الازدراء ، أو كلمة فيها الاستهزاء ، وحز فى نفسه أن يرى فى مريضته ما رأى ، فراح يقلب الأمر بين يدي عقله فبدا له أن يكف عن زيارتها . وفى اليوم الثالث حدثها حديثه فى رقة وظرف ، فقبلت وهى تقول : إنها شفيت وأصبحت فى غنى عن الطبيب . وفى الحق لقد وجدت هى الفرصة لتكبح فيه رغبة تأججت حيناً ، وبدا هو نبيلاً كريماً فأطاع ، فما تلاقيا ...

* * *

وتصرمت أيام ... وإذا والتر هوتن فى نديّ يلعب (البلياردو) مع صديق له ، وعلى حين فجأة راح صديقه يحدثه : « أفتراك تعرف أن هذا المسجل (بوب) هو من شياطين اللصوص نزع عن السرقة واطمأن إلى الأمانة ، غير أنه يستطيع أن يستلب مال أى رجل هنا فى سبيل دريهمات معدودات أو زجاجة من الجمة ليريك بعض مهارته ودقته ، ثم هو لا يهدأ إلا أن يرد المال إلى صاحبه ؟ » فابتسم هوتن للفكرة التى اضطربت فى خياله ، ثم تشعب الحديث فنوناً ... وقبل أن يبرح الطالب المكان انطلق إلى (بوب) يسر إليه بعض أمله فى خشية وحذر ، ثم قال : « و .. وإنه ليتراءى لى أن بينك وبين رجال ممن كانوا رفاقك صلات متينة فتستطيع أن ترشدنى إلى واحد منهم فيه الكفاية والدقة » ودهش المسجل لحديث الشاب وهو يبدو غنياً شريفاً أميناً : « ماذا ؟ أفتريد ..؟ » قال الشاب فى تؤدة : « لا ، ما أريد ذلك إننى أنشد شيئاً ليس هو بالسرقة وإن بدا كذلك .. إنها صديقتى ، وهى تملك صورة فيها الروعة والجمال ، ولقد ضنت بها علىّ على حين لا أريد منها إلا أن تعيرنى إياها فأرسم أخرى مثلها ، وأنا رجل فنان ، والصورة قد بلغت فى الإتقان والدقة ذروة الفن ؛ فإن أنا استعنت بك فما أطلب إليك سوى أن أستعيرها بالقوة أياماً ثم أردها ... » قال بوب : « نعم ، الآن استطعت أن أفهم ما تريد ؛ وإن أنت نقضت وعدك فستقاسى وبال أمرك » قال الشاب : « لا تخف فما كان لى أن أغتصب شيئاً هو لغيري يحله من قلبه فى المحل الأول » قال الرجل : « إذن أستطيع ... إن كورنج چيم هو الرجل » قال الشاب : « ومن عسى أن يكون ؟ » قال بوب : « هو أحد أعضاء عصابة رافيان ... وهو شاب فيه الذكاء والنشاط ، وفيه الجرأة والفتوة ، وإنه لقدير » واندفع الشاب ينشر الأمر كله على عينى الرجل فقال : « لا ضير ، فسأصل بينك وبين چيم ، ولكن حذار أن يكون فى الأمر ما يزعج العجوز أو يودى بحياتها ! » قال الشاب : « لا ، لا ؛ إن شيئاً من ذلك لن يكون ؛ غير أن الصورة هى التى جذبتنى إليها فهى قد سمت فوق كل فن هنا ... هنا فى اسكتلنده »

وكان الحديث بين الرجلين همساً فى مكان خلا من الناس سوى رجل زرى الهيئة ، رث الثياب أشعث أغبر ، وقد استلقى على نضد بازاء المدفأة يغط غطيطاً ويتوسد حزمة من الصحف اليومية . وحين انطلق الطالب وصديقه إلى الخارج ، رفع الرجل النائم رأسه فى حذر ورقبة وقد شاع فى وجهه السرور ، وفى جسمه النشاط ، وفى عينيه سمات المكر ؛ ووجد سيمن بنبارك نفسه وحيداً فقفز من على النضد فى خفة ورشاقة يقول فى نفسه : « ها هى ذى مؤامرة أخرى تفيد ميندو ! إن كورنج چيم رجل ظريف إلا أنه قد هوى . يا أسفا ! أهكذا تكون النهاية ؟ إن غاية كل من يسلك سبيله أن يتردى ... » ثم انطلق يشتد إلى دار ميندو

وبلغ الطالب وصديقه دار كورنج چيم ...

أفيكون هذا الشاب لصاً وهو يتنزى أدباً ولطفاً ورقة وطلاقة ؟ لشد ما أذهل هوتن أن يرى فى الفتى الظرف ودماثة الخلق وذلاقة اللسان فهو لا يغلظ فى حديثه ولا ينحط بكلماته إلى العامية المقونة وهى لغة أمثاله ! إن على وجهه سمات الإجرام ، ولكنها لم تسترع نظر الطالب فهو قد رأى رجلاً مهذباً مصقولاً دونه بعض ذوى المناصب الراقية ... وخُيّل إلى الطالب أنه رأى الرجل من قبل ، ولكن أين ... ؟ متى ... ؟ إنه لا يستطيع أن يجزم

وألقى اللص السمع إلى الطالب وهو يحدثه حديث الصورة ، ويطلب إليه أن يستعيرها له بالقوة ويخلف فى مكانها قصاصة من ورق تنبئ عن الخبر كله ... ثم قال : « ولن تضل الطريق فأنا أهديك إلى هناك ، وهى فى الطبق العلوى ... » قال چيم : « لقد قلت إنها عجوز شمطاء ، فماذا عساى أن أصنع إن هى حاولت أن تدفع عن ذخيرتها ؟ » قال الطالب : « إذن فلا تمسها بسوء ولا تبعث فى قلبها الرعب فخير لى ألا أنال صورة من أن يصيبها أذى ... » قال اللص : « لا ضير ، فما أجرى إذن ؟ » قال : « خمسة جنيهات ، أفيكفيك هذا المبلغ ؟ » قال : « نعم ، وستنال بغيتك بعد ثلاث ساعات »

وتصدّع الجمع ، فانطلق الطالب إلى داره ، وبوب إلى عمله . أما اللص فطار يهيىء أدواته ومصباحه ثم اندفع صوب دار العجوز فى ميدان ميلين وقد انتصف الليل . وفى هذه الآونة كان ميندو وبنبارك يفتشان عنى ... ثم انطلقنا جميعاً نشتد علّنا نستطيع أن نقبض على واحد من عصابة رافيان

بلغ چيم الدار وقد ماتت الحياة فى كل حى ، فخلع نعليه ثم أخذ يرتقى الدرج فى صمت حتى وقف بازاء الباب ، ثم دفعه دفعة فاذا هو على مصراعيه فى غير عناء ولا جهد ، فوقف عند عتبته يتسمع فما سمع سوى صوت غطيط العجوز ، ولمع الأمل فى ناظريه حين ردد بصره الحديد فى أرجاء الحجرة فرأى على ضوء نار المدفأة الصورة المقنعة معلقة فراح يحدث نفسه : « لا بأس ، سأختطفها ثم أرتد إلى الخلاء ، وستعلم هى كل شىء عند انبلاج الصبح ! » ثم سار الهوينى فى حذر وخفة كأنه شبح

لشدّ ما أفزعه أن يسمع غطيط العجوز ينقلب فجأة إلى أنات اليقظى وهو على قيد شبر من الصورة ! لقد اضطرب قلبه وانتفض جسمه ووقف فى مكانه لا يستطيع حراكا ؛ غير أنها ما لبثت أن اندفعت فى غطيطها ، فأمسك هو بالصورة ينزعها عن مكانها

ووقعت الواقعة ... لقد أبصرت بالشبح من خلال الضوء الضئيل المنبعث من نار المدفأة، أبصرت به وهو يريد أن يستلب الصورة ... وفى غمضة عين أرسلت صيحة دوّت فى أرجاء الحجرة ثم ألقت بنفسها على الضيف الثقيل تتشبث به ، فهمس هو فى أذنها : « دعيني أيتها اللعينة ... دعيني وإلاّ صببت عليك صوت عذابي ! » قالت : « لا ، لا أستطيع » ثم صاحت : « العون ! هيا ! اللص ! القاتل ! آه ! » ثم ماتت الصيحة فى أضعاف أنة ضعيفة واهية حين دفعتها يد اللص القاسية فانحطت على أرض الحجرة كأنها قطعة من حجر . وانفلتت الصورة من يده فأضاء مصباحه وهو يقول لنفسه وقد آلمه ما كان : « لا ضير ، فهى ستنال الصورة بعد أيام . ولكن ... ولكن لماذا قسوت عليها ؟ الآن أستطيع أن أنطلق ... » وساد السكون مرة أخرى فراح يبحث عن الصورة ... ووقع بصره عليها ...

وانتفض اللص انتفاضة المحموم تعركه الحمى عركا شديداً ... انتفض حين رأى فى الصورة طفلا فيه الجمال والطهر والمرح فى وقت معاً . لشد ما آلمته الصدمة فأذهلته عن نفسه فانطلق إلى العجوز الملقاة على الأرض لا تحى ولا تحس وهو يتحدث وفى رنّات صوته معنى الأسى والحزن « أماه ! آه ، يا أماه ! ياويح نفسى ! لقد قتلتها ! قتلت أمى ، ياربّاه ! » ثم أمسك بيدها الباردة وراح يحاول عبثاً أن يردها إلى رشدها ... واستطاعت العجوز — بعد لأى — أن تحدّق فى الرجل الذى إلى جانبها ، فانبسطت أسارير اللص فصاح : « أماه ! أماه ! إنه أنا جيم ابنك ! » وانفرجت شفتا المرأة فى عناء عن مثل الهمس : « لا ، لست أنت ، لقد مات ! » ثم انغمرت فى ذهول شديد ...

وعلى حين فجأة اندفع الباب بشدة وصوبت أنا المصباح نحو اللص وارتمى عليه ميندو وبنبارك فى وقت معاً ليحولا بينه وبين أن يفر . غير أن الرجل لم يرتد إلى ورائه ، ثم ينقض علينا كأنه النسر الكاسر يدافع عن نفسه شأنه فى كل مرة ؛ بل ظل فى مكانه هامداً لا يتحرك وهو يقول فى حزن وانكسار : « لقد قتلتها ! قتلت أمى ! فخذونى إلى المشنقة واشنقونى تحت سمع العالم وبصره » وصاح بنبارك فى طرب : « آه ها ! » ثم أخذ يتهادى فى بهجة وسرور وهو يعبث بقطعتين من النقود ذهبيتين فى يده ويقول : « لقد هددتني يا مستر جيم بالقتل ولكنه يخيل إلىّ أن السكين قد قطعت فى الناحية الأخرى . والآن وقد ضيقت عليك الخناق فلا تجد مهرباً فخذ هاتين القطعتين مكافأة ذهبية لك » ولكن اللص فى ذهوله لم يع من شمائة خصمه حرفاً ، فهو يردد كلماته ما يمسك عنها

وأمرني ميندو فوضعت فى يدى اللص غُلاًّ ثم سقناه إلى دار الشرطة على حين استدعينا طبيباً يعالج العجوز

* * *

وفى صباح اليوم التالى بدت مسز ليون معصوبة الرأس من أثر جرح فى جبهتها أصابها حين انطرحت على الأرض وهى تحاول أن تنقذ الصورة من بين يدى اللص ، وهى تتوكأ على امرأتين . وحين استقر بها المقام طلبت إلينا أن نرى السجين وهى تقول : إن خطأ قد وقع بالأمس تريد هى أن تكشف عنه ...

وتصرمت ساعة من زمان وهى فى حجرة اللص فماذا كان ؟ إن واحداً لا يستطيع أن يعلم ماذا كان منها وماذا كان منه ؟ وخرجت من لدن اللص لتجلس على كرسى بإزاء المدفأة وعلى وجهها سمات الهدوء والطمأنينة وفى عينيها آثار عبرات مهراقة... وأقبل ميندو عند الظهر فنادته تسر إليه بحديث طويل ويده بين يديها ودموعها تتدفق فى غير هوادة ولا رفق ، وهو يسألها حيناً ويسمع حديثها حيناً آخر وفى النهاية قالت له : « لا تنس أننى أمه وهو وحيدى ، فاعف عنه واصفح كما تنتظر أنت الغفران من الله » فتطلق وجه الرجل من عبوس وحيّاها فى احترام ، ثم انطلق ...

ثم ... ثم نودى جيم للمحاكمة وأقبلت مسز ليون فحلفت اليمين وسئلت أول من سئل

قال النائب : « أتعرفين هذا الجانى ؟ »

قالت : « نعم ، وهو ابنى » فأرسلت هذه الكلمات دوياً من الهياج والهمس فى أرجاء المحكمة

ثم سألها النائب : « أفتتهمينه بالتسلل إلى دارك والتعدى عليك ؟ »

قالت : « لا ، إن جيم لا يستطيع أن يجد فى قلبه القسوة فيرفع يده ليضربنى وأنا أمه »

قال : « كأنك تريدين أن تقولى إنه ليس هو الذى اعتدى عليك ، فكيف إذن أصيبت جبهتك؟ »

قالت : « لست أدرى ، وكل ما أستطيع أن أقوله هو أننا لم نتلاق منذ سنوات وسنوات فلما رأيته إلى جانبى ألقيت بنفسى بين ذراعيه وذهلت فما أفقت إلا والطبيب يضمد جرحى »

وسمع السجين كلمات أمه فما استطاع أن يكتم فى نفسه أنة محزون يندم على ما فرط منه وفى وجهه أثر الخزي والعار

قال النائب : « أليس حقاً أنك كنت فى وقت ذات مال فرقه هذا السجين بدداً وخلفك بين براثن الوحدة والفقر ؟ »

قالت : « إن مالى هو ماله ، غير أن رفاق السوء دفعوا به إلى الهاوية فتردى . وإنى أطلب إليك — وقد علمت كل أمره — ألا تسألنى عن شىء ... » ثم أجهشت بالبكاء

فمال النائب نحوى وهو يقول : « إن العجوز تصر على ما تقول فادع ميندو »

وجاء ميندو فسأله النائب : « أتعرف هذا الرجل ؟ »

قال : « نعم ، إنه كورنج جيم »

قال : « أفتعتقد أنه اقتحم باب مسز ليون بالأمس ليسطو عليها ؟ »

قال ميندو : « لقد خيل إلىّ ذلك غير أننى لمست خطيئتى حين علمت أنه كان يزورها »

وألح النائب على ميندو يريد منه اعترافاً ولكن من ذا يستطيع أن يرغم هذا الرجل الصعب — وهو صائد اللصوص — أن ينزل عن رأيه ؟ لقد كان عبثاً كل ما بذل النائب من جهد ، فألغيت التهمة وانطلق كورنج جيم ليسدل على نفسه الشريرة ستاراً كثيفاً من النسيان . ثم ليكون ... ليكون هو جيمس ليون ، وليستقر فى قرية على مسافة نائية منا رئيساً لعمال مصنع النسيج هناك ، يعيش إلى جانب أمه الحنون فى هدوء وطمأنينة وقد سكن إلى الجد والنشاط والأمانة والشرف . لا يحيد عن الطريق المستقيم

كامل محمود حبيب